السخرية في السيرة الذاتية المصرية الحديثة كتاب "الأيام" نموذجا.

الدكتور شفيق. سي بي
استاذ مساعد، قسم اللغة العربية،
كلية مدينة العلوم العربية بوليكال، مالابرام، كيرالا الهند

أدب السخرية هي صياغة فنية شائعة لدى الكتاب والشعراء تستبطن فيها قدرا من الحكمة والذكاء قصدا لإبراز النقائص والعيوب فردية أو جماعية، فلا يخلو أيّ جيل من الأجيال إلاّ نجد فيهم تاريخا في هذا الفن وذلك أنّ النفس البشرية بطبيعتها تسعى إلى وصول مجالات البهجة والسرور، وتبحث عن السعادة في حياتها واللّذة الأدبية في أوقات فراغها، فهذا الفن يمنح لنا من السعادة باعتراض الفكاهات المرحة والنوادر المضحكة من الحياة ويزيل الشيئ الكثير من هموم الإنسان.وقد عرفت السخرية في الكتابات الأدبية قديمها وحديثها، مثلا البخلاء للجاحظ، وكليلة ودمنة لعبد الله ابن المقفع، وقد شهد هذا الفن كثيرا من التطورات من مبدأه في العصر الجاهلي في نصوص الشعراء الجاهليين كنوع من الهجاء وما شابهه[١]، وسار على منواله في العصر الأموي حتى رسخ بأيدي الجاحظ في النثر العربي، ومن هنا أصبحت السخرية تترسخ كفن قائم بذاته ، الموجّه غالبا إلى كشف معايب المجتمع ونقائصه قصدا لإصلاحه.

السيرة الذاتية في الأدب العربي المصري الحديث.

ظهرت السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث بوصفها جنسا أدبيا مستحدثا في نهاية القرن التاسع عشر بعد أن اتصل العالم العربي بركب الحضارة الغربية ظهرت إرهاصات السيرة الذاتية في الأدب العربي المصري الحديث وقد كانت هذه الإرهاصات في معظم الحالات، وثيقة الصلة بالموروث التراثي، وفي بعض الحالات متأثرة بالأدب الغربي[٢] وفي مصر انتشرت السيرة الذاتية انتشارا واسعا، ويعد كتاب «تلخيص الإبريز في

١ طه، نعمان محمد أمين، السخرية في الأدب العربي حتّى نهاية القرن الرابع الهجري ، ص: ٩

٢ شاكر، تهاني عبد الفتاح، السيرة الذاتية في الأدب العربي ، ص:٦٧

تلخيص باريز» لصاحبه رفاعة الطهطاوي من إرهاصات السيرة الذاتية في العصر الحديث في مصر، والواقع أن ذاته في هذا الكتاب كانت محتجبة لأن رفاعة كان لا يستسلم لانطباعاته الشخصية بقدر ما كان يراعي معالجة ما يشاهده، أو يسمعه، ويقرأ عنه معالجة موضوعية،[٣] وقد كان غرض رفاعة الطهطاوي من هذا الكتاب وصف رحلته التي قام بها إلى فرنسا كما نصحه شيخه العطار، والحديث عن حياته في تلك البلاد.

وكتب علي مبارك سيرته عام ١٨٨٩م قبيل وفاته بأعوام قليلة ضمن كتابه «الخطط التوفيقية» واستخرج بعض الباحثين ونشرها مفردة باسم «حياتي»، يبدأ علي مبارك سيرته بالحديث عن مولده في قرية برنبال الجديدة ثم يتحدث عن أصول عائلته التي كانت تسمى عائلة المشايخ لكثرة القضاة فيها،[٤] وأما سيرتا رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك فإنهما لا تختلفان كثيرا عن السيرة الذاتية التي خلفها لنا علماء العرب منذ قديم، ثم جاء الأديب الكبير طه حسين بسيرته الذاتية باسم «الأيام» ويعد هذا الكتاب أول سيرة ذاتية فنية في الأدب العربي[٥] عامة وفي مصر خاصة، ثم جاء الأديب أحمد أمين بسيرته الذاتية باسم «حياتي» وكتب عباس محمود العقاد «أنا» وكتاب «حياة القلم» ويختلف أسلوب هذا الكتاب من أساليب طه حسين وأحمد أمين، فالعقاد يتبع في كتابة سيرته الأسلوب التحليلي التفسيري الذي تعود عليه في مقالاته ونشر عقاد هذه السيرة على شكل مقالات في عدة مجلات قبل أن يتم جمعها في الكتاب، ثم جاء نجيب محفوظ بسيرته «أصداء السيرة الذاتية» وهذا الكتاب مجموعة قصصية حول ذكرياته وخواطره وفلسفته، فهو لم يكتب السيرته الذاتية بشكل مباشر إلا أننا نجد حياته ملخصة في جميع قصص

٣ عبد الدايم، يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: ٧١
٤ شاكر، تهاني عبد الفتاح، السيرة الذاتية في الأدب العربي، ص:٧١
٥ المصدر السابق، ص:٧٢

المجموعة ،[٦] ثم جاء عديد من الأدباء بسيرهم الذاتية في مصر.

السخرية في السيرة الذاتية المصرية الحديثة كتاب «الأيام» نموذجا.

منذ فجر التاريخ السخرية والفكاهة تجريان في دماء المصريين مجرى النيل في بلادهم، وكانو يضحكون ويسخرون ويتهكمون، وهم شعب ساخر بطبعه، ومرح يحب السخرية والفكاهة[٧]، وفي مجال السيرة الذاتية لما يكتب الكاتب عن نفسه فعادة هو يكتب عن أرائه وأفكاره وتجاربه فهذه الأشياء عادة تشتمل الفكاهة والسخرية فلذا نرى السخرية والفكاهة عنصرا مهما في السيرة الذاتية، ولما كثر الأدباء في مجال السيرة الذاتية فكثرت السخرية في هذا الفن، وجدير بالذكر في هذا المجال الأديب الكبير والعميد الأدب العربي طه حسين وسيرته الذاتية «الأيام» والأيام كتاب عن أيام أتت وولت على طه حسين، يقصه قصة حياته مثل طفولته في قريته وشقاوته مع شيخه ثم الانتقال إلى أعمدة الأزهر حيث كان يتجلى كل أمل أبيه أن يراه عالما يعتكف على إحدى تلك الأعمدة يدرّس فيها طلابه، وإنها سيرة ذاتية جميلة حيادية وموضوعية شاملة على السخرية، تتسم بالتواضع والاعتراف بالأخطاء والصبر على مصائب الحياة،[٨] وهذا الكتاب ليست مجرد سيرة ذاتية فقط بل فيه تفكرات عظيمة، تستفيد الأجيال القادمة، كما هومصدرللحالة المجتمع المصريّ في القرن العشرين، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية والفرنسية والعبرية والصينية والروسية والألمانية والفارسية[٩].

وهذه السيرة الذاتية تشتمل على ثلاثة أجزاء، صدر الجزء الأول عام ١٩٢٩م، وفيه يتحدث الأديب عن طفولته بما تحمل من معاناة وعن الجهل المطبق على الريف المصري وما فيه من عادات حسنة وسيئة في ذلك الوقت، والجزء الثاني صدرعام ١٩٣٩م، يدور هذا الجزء حول المرحلة التي امتدت بين دخوله الأزهر وتمرده المستمر على مناهج الأزهر وشيوخه ونقده الدائم لهم بأسلوب ساخر،[١٠] والجزء الثالث ألفه خلال رحلته إلى فرنسا، فيناقش فيه عن الدراسة في الجامعة الأهلية ثم عن سفره إلى فرنسا وغير ذلك من الأشياء.

٦ تلمية، عبد المنعم، ذاته في ذوات الآخرين، نجيب محفوظ في سيرته الذاتية، مجلة إبداع، العدد ٦، ص :١٠

٧ الهوال، حامد عبد ،السخرية في أدب المازني، ص:٧٥

٨ التونجي، محمد، المعجم المفضل في الأدب، ج١، صفحة ١٥١ .

٩ عطية صلاح، طه حسين ومعاركه الأدبية، ج١، ص١٨.

١٠ عيسى سحر سليمان، قراءات من المكتبة العربية، ص٢٦٧

السخرية تظهر وتشتد في «الأيام» لما يناقش ويفسر طه حسين عن الأزهر وشيوخه فيه، فقد التحق طه حسين بالأزهر عام ١٩٠٢م وبقي فيه حتى عام ١٩٠٨م، وكان طوال هذه الفترة منتقلا بين حلقات الدروس الاسلامية ومنطق ونحو وأدب، ولم يمل إلى شئ منها عدا الأدب فقد كان شغوفا به حريصا على حضور حلقاته، وخاصة حلقة الشيخ سيد المرصفي الذي كان يلقي دروسا في الأدب، وهذا ما كان يربط طه حسين بالأزهر، وبقلّة تعجبه الدراسة في الأزهر نجده كثيرا ما يهاجم ويسخّر شيوخ الأزهر، ويتحدث عن سوء مناهج التعليم فيه، ويصف طريقة التدريس فيه بالجمود والتقليد و"الأيام" مليء بالأمثلة على مهاجمته المشايخ ولجاجته معهم وسخريته بهم، وقد ذكر طه حسين قصة تخلفه وعدم توفيقه في الامتحان في سيرته الذاتية بلهجة ساخرة واتهم لجنة الامتحان تعمدها إسقاطه وتعجيزه.

السخرية واضحة في هذه السيرة الذاتية لما يناقش طه حسين عن جامعة الأزهر وشيوخه في الأزهر في الفقرات ومنها "ومنهم هذا الشيخ.. الذي كان في أول أمره حمّارا ينقل للناس بضائعهم وأمتعتهم، ثم أصبح تاجرا، واقتصرت حمره على نقل تجارته، والذي كان الناس مجمعين على أنه أكل أموال اليتامى، وأثرى على حساب الضعفاء، والذي كان يكثر من ترديد هذه الآية وتفسيرها: "إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا" والذي كان يكره الصلاة في المسجد الجامع؛ لأنه كان يكره الإمام ومن إليه من العلماء، ويؤثر الصلاة في جامع صغير لا قيمة له ولا مكان، ومنهم هذا الشيخ ... الذي لم يكن يقرأ ولا يكتب ولا يحسن قراءة الفاتحة، ولكنَّه كان شاذليا من أصحاب الطريق، كان يجمع الناس إلى الذِّكر، ويُفتيهم في أمور دينهم ودنياهم."[١١]

ولما يفسر طه حسين عن عن بعض الدروس والأساتذة فنراه يسخر «ولم يكن حظه في المنطق خيرا من حظه في الفقه والنحو. لقد أحب المنطق حبا شديدا حين كان يسمع شرح السيد على إيساغوجي من أستاذه ذاك الشاب في العام الماضي. فأما في هذا العام فقد جلس لأمثاله من أوساط الطلاب علم من أعلام الأزهرالشريف، وإمام من أئمة المنطق والفلسفة فيه. وكان معروفا بين كبار الطلاب بهذا الذكاء الظاهر الذي يخدع ولا يُغني شيئا. وكان معروفا بهذه الفصاحة التي تبهر الأذن ولا تبلغ العقل. وكان يؤثرعنه أنه كان يقول: «مما من الله علي به أني أستطيع أن أتكلم ساعتين فلا يفهم أحد عني شيئًا ولا أفهم أنا عن نفسي شيئا كان يرى ذلك مزية وفخرا. ولكن لم يكن بد للطالب الذي

١١ حسين طه، الأيام،ص:٦٠

قدر نفسه من أن يجلس إليه ويسمع منه. وقد جلس للطلاب بعد صلاة المغرب يقرأ لهم شرح الخبيصي على تهذيب المنطق، وذهب إليه صاحبنا وسمع منه درسا ودرسا، وكانت حل قته عظيمة حقا تكتظ بها القبة في جامع محمد بك. وكان الغلام يسبق صلاة المغرب فيجلس في أقرب مكان من كرسي الأستاذ، وكان الأستاذ جهوري الصوت قد احتفظ بلهجة الصعيد كاملة. وكان شديد النشاط كثير الحركة. وكان إذا سأله طالب رد عليه ساخرا منه، فإن ألح الطالب في السؤال ثار هو به وجعل يقول له في حدة: «اسكت يا خاسر، اسكت يا خنزير! وكان يفخم الخاء في الكلمتين إلى أقصى ما يستطيع فيه أن يبلغ من التفخيم»[١٢]

والسخرية واردة في هذه السطور أيضا» وفسر الشيخ رحمة الله فأحسن التفسير، وخاض في حديث الجبر والاختيار، وجعل يرد على الجبريين ويدفع مقالتهم، ويأخذ الفتى في حوار الشيخ على عادة الأزهريين، فيسمع الشيخ له ويرد عليه ردا لا يقنعه، ويأبى الفتى إلا اللجاج، فينهره الشيخ بهذه الكلمات: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن! الله أكبر على العلم والإيمان، حضرتك مسلم؟ ويهم الفتى أن يجيب، ولكن الشيخ ينهره في سخرية غاضبة قائلا: اسكت يا شيخ جاتك الكلاب خلينا نقرأ ثم يمضي في حديثة غير حافل بالفتى، ولكن الفتى يهم أن يتكلم، وإذا أستاذه الإيطالي يمس كتفه مسا متصلا، وهو يقول له هامسا بعربيته التونسية العذبة :اسكت، ليضربك! يميل بالضاد إلى الظاء، ويرى الفتر نفسه مغرقا في ضحك خفي، لا يدري أكان مصدره سخرية الشيخ منه أم رفق الأستاذ الإيطالي به وإشفاقه عليه؟ فإذا انتهى الدرس ذهب الفتى بأستاذه الإيطالي إلى إدارة الأزهر، واستأذت له على الشيخ الأكبر، فأذن له وتلقاه حفيا به متلطفا له في الحديث، ثم ينظر إلى الفتى فيسأله في رفق: أأنت الذي كان يجادل في الدرس؟ قال الشيخ متضاحكا: ما شاء الله! ماشاء الله! فتح الله عليك وأشقاك بتلاميذك كما يشقى بك أساتذتك!»[١٣]

وبكثرة اصطدامه مع الشيوخ فاصطدم مرة بأستاذ النحو، حين استفسر عن معنى عبارة من العبارات، فوصفه هذا الأخير بالغباء والوقاحة. وكانت النتيجة أنّه لم يحضر بعد ذلك، طوال حياته، درسا في النحوولم يكن حظّه في المنطق والفقه، كما قال، خيرا من حظّه في النحو.

---

١٢ حسين طه، الأيام، ص١٨٩

١٣ حسين طه، الأيام، ص:٢٤٥

وفيه هذه السطور أيضا يحاول طه حسين للسخرية "لقي الغلام بلاء من نفسه لم يذكره قط إلا ضحك منه ضحكا شديدا، وأضحك منه أخاه وأصدقاءه جميعا؛ فقد جلس الشيخ على كرسيه وأخذ في القراءة، فقال: "المقصد الثاني في التصديقات". يُقلقل القاف ويفحم الصاد، ويمد الألفات والياءات مدا متوسطا. ثم يعيد هذه الكلمات نفسها فيقلقل القاف ويفخم الصاد ويُطيل مد الألفات والياءات. ثم يعيد الكلمات نفسها فيقلقل القاف ويفخم الصاد ويمد الألف والياء في "الثاني،" ولكنه لا يقول في التصديقات، وإنما يقول: في مين؟ فلا يرد عليه أحد، فيرد على نفسه ويقول: في التصديقات، ثم يُعيد الكلمة نفسها على هذا النحو نفسه، فإذا انتهى إلى قوله: في مين؟ ولم يرد عليه أحد، ضرب بظهر يده في جبهة الغلام وهو يقول: ردوا يا غنم، ردوا يا بهائم، ردوا يا خنازير! يُفخم الغين والخاء إلى أقصى ما يستطيع فمه أن يبلغ من التفخيم، فيقول الطلاب جميعا: في التصديقات. لقي الغلام من نفسه عناء شديدا؛ فقد كان هذا كله خليقا أن يُضحكه، وكان يخاف أن يضحك بين يدي الأستاذ. ولقي من شيخه بلاءعظيما بهذه الضربات التي كانت تتوالى على جبهته بين حين وحين. ومهما يكن من شيءٍفقد تحول الغلام عن هذا الدرس ولم يتجاوز بالمنطق عند هذا الشيخ باب القضايا".[١٤]

ونرى السخرية فيه أيضا «وكان يقدر أن الأساتذة في السوربون، سيكلفونه بعض الواجبات المكتوبة، كما كانوا يكلفون غيره من الطلاب، فلم يكن له بد إذن من أن يتهيأ لتحرير هذه الواجبات حين تطلب إليه على وجه لا يعرضه للسخرية والازدراء، وما أكثر ما كان الأساتذة يسخرون من طلابهم إذ كتبوا لهم الواجبات فقصروا في بعض نواحيها! وكان الأساتذة يقرءون بعض هذه الواجبات، يختارون من بينها للقراءة أشدها تعرضا للنقد، ثم يأخذون في هذا النقد على نحو لا ذع ممض يحرضون به الطلاب على أن يحسنوا العناية حين يكتبون، وكانت سخريتهم بالمقصرين تضحك الزملاء وتخرجهم أحيانا عن أطوارهم.

فكره الفتى أن يتعرض لبعض هذه السخرية ولكنه تعرض ذات يوم لشر منها، كلفه أستاذ تاريخ الثورة الفرنسية فيمن كلف من زملائه كتابة موضوع عن الحياة الحزبية في فرنسا بعد سقوط نابليون فأقبل على هذا الموضوع فدرسه كما استطاع في الكتب التي نبه إليها الأستاذ، وفكره فيه كما استطاع أيضا، ثم كتب عنه ما أتيح له أن يكتب، وقدمه إلى الأستاذ في اليوم الموعود، وجاء يوم النقد فاستعرض الأستاذ ما قدم إليه من

١٤ حسين طه، الأيام، ص ١٢٨

الواجبات ناقدا ساخرا منددا متندرا موبخا بعض الطلاب أحيانا، حتى إذا ذكر اسم الفتى لم يزد على أن ألقى إليه واجبه معقبا بهذه الجملة المرة التي لم ينسها قط»سطحي لا يستحق النقد» وكان لهذه الكلمة وقع لاذغ في نفس الفتى أمضه بقية يومه، وأقض مضجعه حين أقبل الليل، وأشعره بأنه لم يتهيا بعد كما ينبغي ليكون طالبا في السوربون، فألح في درس الفرنسية وكلف نفسه في هذا الدرس من الجعد الثقيل والعناء المتصل ما كاد يصرفه عن غيره من الدروس، وأعرض عن المشاركة في كتابة الواجبات حتى تتم له أداة هذه الكتابة وهي اللغة الفرنسية.»[١٥]

هكذا عالج الأديب طه حسين السخرية في سيرته الذاتية، وبهذا نفهم «الأيام» ليست مجرد سيرة ذاتية، الذي يكتب الكُتاب عادة وإنما هي تجربة تصلح لأن يستفيد منها الأجيال المتعاقبة، كما تصلح لدراسة أوضاع المجتمع المصري في القرن العشرين.

المصادر والمراجع

١. طه نعمان محمد أمين، السخريّة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار التوفيقية للطباعة، القاهرة،١٩٧٩م.

٢. هيكل أحمد، تطور الأدب الحديث في مصر، دارغريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٠م.

٣. حسين، طه، الأيام ، مركز الأهرام للترجمة والنشر،القاهرة،١٩٩٢ م.

٤. التونجي، محمد، المعجم المفضل في الأدب، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م.

٥. ضيف شوقي، الفكاهة في مصر، ط/٣، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٦. شاكر، تهاني عبد الفتاح، السيرة الذاتية في الأدب العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،٢٠٠٢م.

٧. عطية صلاح، طه حسين ومعاركه الأدبية، ج١،دارالجمهورية للصحافة، ١٩٥٤م.

١٥ حسين طه، الأيام ص: ١٢٥